الشاعر أبو طاهر

محمد بن حيدر البغداديّ

وكتاب « قانون البلاغة » المنسوب اليه

« قانون البلاغة » كتاب عنوانه يدلّ على موضوعه ، يعزى تأليفه الى « أبي طاهر محمد بن حيدر البغدادي » من شعراء العصر العباسيّ الوسيط ، ويمتاز بجمال الأسلوب وبلاغة العبارة ، وبعظم الفائدة وحسن الإمتـــاع مع صغر حجمه .

وقد كان هذا الكتاب إلى نحو أربعين سنة خلت مجهول الرسم والاسم عند جمهرة الباحثين والدارسين للبلاغة العربية ، فكشف عنه « المجمع العلمي العربيّ » ، وأتاح للناس الاطّلاع عليه والإفادة منه بنشره له في مجلته . وقد وجد نسخته الفذة النادرة نائمة في رفوف « دار الكتب » بدمشق ، وعلى ظهرها اسم مؤلفه : « فخر الدين أبي طاهر محمد بن حيدر البغدادي » ، فكانا غريبين عليه ، وأراد تعرّف خبرهما ، فنقب عن الكتاب في فهارس المكتبات الكبرى في الشرق والغرب عسى أن يظفر بنسخة ثانية تعزّز النسخة الدمشقية ، فلم يقع فيها على ذكر له . ونقب عن المؤلف ، الذي عُزي اليه الكتاب ، في كتب التراجم والتاريخ ، وأطال فيها تنقيبه ، فلم يقع فيها على خبره كذلك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبعد هذا وذاك لجأ الى الاستنباء عنها من العلماء والأدباء ، وأعلن ذلك في مجلته مراراً ، فلم يحلّ من أحد بطائل . وعاوده الأمل في الظفر بخبر المؤلف إذا هو عاود التنقيب عنه كرة ثانية ، وبعد لأيٍ أُتيح له العثور على هذا الخبر في كتاب تركي ، فرأى عجباً أن تهمل الكتب العربية أديباً وكاتباً بليغاً من أعلام العرب ، ويذكره كتاب تركي !

ولكن ترجمة أبي طاهر البغدادي ، في هذا الكتاب التركيّ المسمّى « قاموس الأعلام » ، كانت مختصرة جداً لا تبلُّ غليل ظمآن ، فكلّ ما تضمنته اسمه ونسبته ووفاته وثلاثة أبيات من شعره . أما كتاب « قانون البلاغة » المعزوّ اليه في نسخة دار الكتب الدمشقية ، فلم يذكر له في هذه الترجمة .

وعند آخر مطافه هذا ، وقد قطع أمله في الظفر بالمزيد من أخبار المؤلف كما قطع أمله في الحصول على نسخة ثانية من الكتاب ، بادر فنشر الكتاب مُنجّماً في أجزاء المجلد السابع من مجلة الزهراء هذه .

وها قد مضى على ذلك حَرْس من الدهر ، ولم أرَ من نَبَس بحرف عن هذا الكتاب البليغ ، ولا عن مؤلفه ، وهو كما يبدو من قوة أسلوبه وبلاغة عبارته ، من أعلام الكتاب الذين جرت الفصحى على أسلات أقلامهم أعذبَ ما تكون عذوبةً وسلاسة وحلاوة أستغفر الله ! فإن الشيطان لا سبيل له الى أن ينسيني أن أذكر ترجمة صديقي الأستاذ خير الدين الزركلي لهذا المؤلف في كتابه « الأعلام » (الذي هو في اللغة العربية صنو « قاموس الأعلام » في اللغة التركية ، ولكنه يُبزّ عليه من وجوه ، غيرَ أنه لم يخرج عن حدوده في إيجازه كما تقتضيه طبيعة كتابه الذي يترجم لآلاف من الأعلام في مختلف العصور) ، فسماه ونسبه وعيّن سنة وفاته ، وحذف الأبيات الثلاثة التي ساقها « قاموس الأعلام » من شعر المترجم ، وعوض عنها الإشارة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إلى شعره في « فوات الوفيات » ، ثم ذكر ما أفاده من مجلة المجمع العلمي العربي من تلقيبه بفخر الدين ومن عزوه « قانون البلاغة » ، وأضاف شهادته له بأنه شاعر رقيق وكاتب من بلغاء الكتاب . وعندي أن تلقيبه والقطع بنسبة هذا الكتاب اليه ، أمران موقوفان على ما يعزّزهما من كتاب موثوق به . فالكتب التي ترجمت لأبي طاهر ، كما سأذكرها ، لم تورد لقبه هـــذا ، ويمكن التثبت منه بالرجوع إلى « تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب » لابن الفُوَطِيّ ، في باب « فخر الدين » ، ولم ينشر بعد . ونسبه « قانون البلاغة اليه ، استناداً إلى ما كتب على ظهر نسخة « دار الكتب » الدمشقية ، لا تقبل في مذاهب التحقيق العلمي إلا بما يصححا من روايات الثقات الأثبات ، ولو كان ذلك من طريق رواية صحيحة واحدة في أصعب الأحوال . وعلى إثبات هذا ، يتوقف إطلاق الشهادة له بأنه كاتب من بلغاء الكتاب .

هذا كل ما جَدَّ في أمر أبي طاهر البغدادي خلال أربعين سنة خلت ، وليس حقاً أن يهمل بحثه اكتفاءً بألفاظ معدودات فيه في « قاموس الأعلام » و « الأعلام » ، سواء أكان هو مؤلف « قانون البلاغة » أم كان مؤلفه غيره من الناس .

ومثل هذا الرجل ، وهو من أعيان شعراء زمانه ، ليس معقولاً أن تهمله المؤلفات العربية ـ إطلاقاً ـ كما خيّل لكاتب المجمع قديماً ، بسبب من بقاء هذه المؤلفات مخطوطةً مطمورة في زوايا المكتبات ، أو بسبب آخر غيره .. ومن هذا الظن في المؤلفات العربية تسنّى لي ، وقد أودعتُ ذاكرتي اسم الرجل منذ أصبته في مجلة المجمع ، أن أظفر بطائفة من كتب التاريخ والتراجم وهي تذكره وتورد بعض شعره ، وهو وإن كان دون ما أطمع فيه ، إلا أنه يلقي عليه شيئاً من الأضواء ، يوضح بعض سمات حياته ، ويزيدنا معرفةً به وبشعره .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه المؤلفات العربية التي تذكره ، هي :

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لأبي المحاسن بن تغري بردي (٨١٣ — ٨٧٤ هـ) ، وقد ذكرته في وفيات سنة ٥٦١ هـ بإيجاز شديد ، اقتصر على كنيته واسمه واسم أبيه وجده ، وتذييل هذا بيت واحد من شعره لا غير .

وفوات الوفيات ، لمحمد بن شاكر الكتبي (٠٠٠ — ٧٦٤ هـ) . وقد أوجز كذلك ذكره ، فكناه وسماه وأباه ، وعين تاريخ وفاته سنة ٥١٧ هـ ، ولكنه أهمل نسبته إلى بغداد ، ثم أورد من شعره ستة عشر بيتاً .

والوافي بالوفيات ، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٦٩٦ — ٧٦٤ هـ) ، وقد ذكر كنيته واسمه واسم أبيه ونسبته إلى بغداد وتاريخ وفاته سنة « عشرة ؟ ومئة » ، وأورد من شعره سبعة عشر بيتاً .

وخريدة القصر وجريدة العصر ، للعماد الكاتب القُرَشي الأصفهاني (٥١٩ — ٥٩٧ هـ) ، وقد ذكرت كنيته ، وساقت نسبه إلى جده الثاني ، ونسبته إلى بغداد ، وأشارت إلى بعض ملامحه الخَلْقيَّة ، وذكرت محلَّته ببغداد ، وقصت بعض أحاديث معاصريه عنه ، وأوردت أمثلة من شعره تواردت في قليل منها مع فوات الوفيات والوافي بالوفيات ، وجاءت بأشياء أخرى جديدة لم يعرفاها ، أو هما عرفاها ولم يذكراها .

كذلك ترجمت له كتب أخرى لا تزال مخطوطة رهن رفوف المكتبات ، ومنها :

تاريخ محب الدين ابن النجّار البغدادي المشهور (٥٧٨ — ٦٤٣ هـ) بدلالة ما نقله عنه من نماذج شعر الشاعر كل من فوات الوفيات والوافي بالوفيات .

ولعل صلاح الدين الصفدي ، مؤلّف الوافي بالوفيات ، لم يغفله في كتابه « الشعور بالعُور » الذي ما زال مخطوطاً حبيس بعض المكتبات ، ذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بأن شاعرنا هذا كان مُمَتَّعاً بعين واحدة على ما ذكرت « خريدة القصر (١) » ، وهو الوصف الوحيد من ملامحه حلت لها الإشارة اليه !

وما أحاول الاستقصاء لهذه المخطوطات ، لأنها غير ميسورة لي ، وأدَعُ التنقيب فيها عن الشاعر لمن يمتلكونها ممن لهم في البحث هوىً ورغبة ، راجياً أن يوفقوا لكشف جديد يذيعونه وينفعون به ، إضافةً إلى ما أقدمه في هذه الدراسة الجديدة للشاعر على قدر ما تهيأ لي من موادَّ ، جمعت فيها بين ما أوردته مصادرها ، وما لزم من تحريرها وتمحيصها والإبانة عن دلالاتها على نمط حياة الشاعر ومزاجه وطبيعة شعره وفنه .

★ ★ ★

أمَّا نسب الشاعر ، فأتمُّ ما ذُكر منه هو ما جاء في « خريدة القصر » : « أبو طاهر ، محمد ، بن حيدر ، بن عبد الله ، بن شعيبان ، البغدادي » . على أن جده « عبد الله » قد أُهمل في بعض النسخ ، وثبت في بعض آخر كما ثبت في « النجوم الزاهرة » . وأما جده الثاني « شعيبان » ، فقد حرف في بعض نسخ « خريدة القصر » إلى « شمعان » ، وفي أخرى إلى « شعشعان » ، وما أراهما إلا « شعيبان » التي وردت في نسخة ثالثة أصح من هاتين النسختين . وهو في « النجوم الزاهرة » : « شعبان » ، ولكن تعدد صيغة في « خريدة القصر » بما يقرب من « شعيبان » يرجح عندي رواية التصغير هذه .

(١) قال العماد الكاتب (خريدة القصر ، قسم شعراء العراق : ٢/٢٢٠) : « يسكن سوق الثلاثاء . أعور » هكذا لفظه . والعرب ، وهم أهل بادية وجفاء عيش ، كان فيهم من يتلطفون بذكر العاهات ، فيقولون للأعور « الأحول » كما يقولون للأسود « أبو البيضاء » ، وللأعمى « البصير » و « أبو بصير » . وذكر أبو منصور الأزهري : أنه رأى في البادية امرأة عوراء ، يقال لها « حولاء » . وعامّة أهل العراق لعهدنا هذا إذا ذكروا هذه العاهة ، يتحاشون هذا اللفظ الجافي ، وينعتون صاحبها بـ « كريم العين » ، وهو تعبير رشيق مهذب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان أبو طاهر يعرف في بغداد بـ « ابن شعبان » على ما ذكرت « النجوم الزاهرة » ، أو بـ « ابن حيدر » على ما حكى العماد الكاتب في « خريدة القصر » عن صديقه عمر بن الواسطي الصفّار ، وكان في صغره قد عاد الشاعرَ في مرض موته ، فسماه « ابن حيدر » معرفاً بأبيه . وهذه التسمية أحقّ بالقبول من تسميتهِ « بابن شعبان » ، لأنها رواية رجل من أهل الصقع الذي يسكنه الشاعر ، وأهل « مكة » أدرى بشعابها ، وصاحب « النجوم الزاهرة » خُطّته بعيدة عن خطة العراق ، ولطالما رأينا وسمعنا الشنيع من تحريف الأسماء وحكاية غير الصحيح في زماننا هذا مع شدة الالتحام والتقارب بالعلاقات والمودّات وتعدد وسائل النشر الحديثة وكثرتها ، فكيف يكون الأمر إذا رجعنا به إلى القرن السادس الهجري الذي لم يملك شيئاً من هذا ذا غَناء ؟

وقد عاش الشاعر ببغداد في القرن الخامس الهجري وبعض القرن السادس ، ويظهر أنه من صميم أهل بغداد ، فنُسب اليها ، وليس بالطارئ عليها . وكان يسكن محلة بها تسمى « سوق الثلاثاء » ، وموضعها في خطط بغداد كانت تقام عليه سوق لأهل كلواذَى وأهلِ بغداد ، قبلَ أن يمصّر « أبو جعفر المنصور العباسي » بغداد (١٤٦ هـ — ١٤٨ هـ) ، في كل شهر مرةً يومَ الثلاثاء . فنُسب إلى اليوم الذي كانت تقام فيه السوق ، وقد أدركها ياقوت الحموي في القرن السابع الهجري وهي سوق بزّ بغدادَ الأعظم » . ولا وجود لها لعهدنا .

ولا يُدرَى كم عاش من العمر ، إذْ كان تاريخ مولده مجهولاً ، وإنما استدللت على عصره بتاريخ وفاته ومَنْ عاصر من عظماء زمانه ، وقعت وفاته في زمن « المسترشد بالله العباسي » ، ونَصّ الوافي بالوفيات ـ في نسخته المطبوعة ـ على أنها « سنة عشرة (كذا) وخمس مئة » ، وهو خطأ سيأتي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

توضيحه ، والصحيح أنها سنة سبع عشرة وخمس مائة كما جاء في « فوات الوفيات » . ومن أين الخطأ ذكرُ ابن تغري بردي له في « النجوم الزاهرة » في وَفَيات سنة إحدى وستين وخمس مئة ، ولو صحَّ هذا ـ ولم يصحَّ بالطبع ـ لعددنا أبا طاهر من رجال القرن السادس الهجري ، وأحسب أن مؤلف « النجوم الزاهرة » قد سبق هذا الوَهْم إلى وَهمِه مما حدَّث به العماد الكاتب في « خريدة القصر » عن صديقه « عمر بن الواسطي » ، وقد ذكر له ببغداد ـ سنة إحدى وستين [وخمس مئة] ـ أنه دخل على « ابن حيدر » الشاعر ، في أيام المسترشد ، وهو ـ أي « عمر بن الواسطي » ـ صغير ، وعنده جماعة يعودونه في مرضه الذي مات فيه ، وهو يُنْشد ، فحفظ بعد ذلك ما أنشده من بعض الحاضرين فسبق إلى وَهمه (أي ابن تغري بردي) من هذا النص ، على افتراض اطلاعه عليه وهو ما أرجح ، أن وفاة الشاعر كانت في سنة إحدى وستين وخمس مئة ، وغفل عن ذكر المتحدث أيامَ « المسترشد » ، أي خلافته ، وهي كما يحدثنا التاريخ تبدأ باليوم السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٥١٢ هـ (٧ آب ١١١٨ م) ، وتنتهي باغتيال الباطنيين له في خيمته وهو في أسر « مسعود السلجوقي » على أبواب « مَراغة » في اليوم السابع عشر من ذي القعـــدة سنة ٥٢٩ (٣٠ آب ١١٣٥ م) . فلا يصح ، والحالةُ هذه ، أن تكون وفاة الشاعر قد وقعت في سنة ٥٦١ هـ .

هذا ، ورواية « عمر بن الواسطي » في تعيين زمان وفاة أبي طاهر إطلاقاً من غير تحديد لسنتها ، تلتحم برواية « فوات الوفيات » التي جعلتهـا سنة سبع عشرة وخمس مئة ، وبها استدللت على خطأ ما جاء في « الوافي بالوفيات » من أنها سنة عشر وخمس مئة ، إن لم يكن ناسخ الكتاب أو ناشره قد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أسقط من البَيْن لفظ « سبع » أو قريبٍ منه من الأعداد التي تتركب مع « عشرة » . ويرجح هذا عندي ، أي سقوطَ لفظ « سبع » ، ورودُ « عشرة » مؤنثةً بعد كلمة « سنة » ، فمثل هذا الخطأ النحوي الذي لا يقع فيه الشُّداة النابهون ، لا يمكن أن يقع فيه مؤلف « الوافي بالوفيات » الأديب اللقن الواسع الأدب والمعرفة ، فلا جرم أن كلمة « سبع » قد سقطت سهواً ، وبقيت « عشرة » المؤنثة دالةً عليها ، تبرئةً للصفدي من الجهل بمبادئ النحو ؛

ووفاة أبي طاهر في هـــذه السنة ، مع وصف ابن تغري بردي له بـ « الشيخ » ، إشعاراً بعلوّ سنه ، قد يُبيحانِ لنا أن نقدر أن مولده كان في أواخر عصر « بني بُوَيْه » ببغداد ، وقد انتهى بدخول السلطان « طغرل بك السلجوقي » بغداد في ٢٥ المحرم من سنة ٤٤٧ هـ وقبضه على آخر ملوكهم المسمى « الملك الرحيم » ، أو هو كان في أوائل العصر السلجوقي ببغداد .

وفيما بين مولده ووفاته من هذا العصر ، كانت الخلافة العباسية الى أربعة خلفاء : القائم ، والمقتدي ، والمستظهر ، والمسترشد ، والسلطنة إلى ثمانية من السلجوقيين : طغرل بك ، وألب أرسلان ، وملكشاه ، ومحمود ابن ملكشاه ، وبركيارُق وملكشاه الثاني ، ومحمد بن ملكشاه ، وسنجر .

ففتح عينيه أول ما فتحها على عهد انتقال ، يختلف في جماع طبائعه عن العهد السالف ويباينه كل المباينة في اتجاهاته ومناحيه ، ولا سيما في بدايته حين كان يواجه رواسبه في أشد حالاتها في حياة الدولة والناس ، وأهمها ما كان من سقوط هيبة الخلافة بعُدوان البويهيين على الخلفاء إهانةً وقتلاً ، واستعمال العصبيات المذهبية الذي أدى إلى نشوب الفتن وإراقة الدماء ونشر الخراب والدمار ، وإلى زوال الأمن جملة وانتشار الذعّار واللصوص وقطاع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الطرق والسابلة ، من سوء السياسة والإدارة والاستبداد ، وإلى الحجر على الحريات ، واضطرار أعيان العلماء والناصحين إلى الهجرة فراراً من البطش والتنكيل . وانزواء آخرين في عقر دورهم تستراً من أعين الظلم ، حتى انقطع التناصح أو كاد ، وعم الفساد ، وكثرت بُؤَر الإثم والموبقات ، إلى أشياء من نحو هذا وضعت ميسمها الفاضح على هذا العصر الأسود القاتم .

فشاهدَ طليعةَ العصر الجديد ومنصبُ الخلافة يستردّ في الجملة بعض رونقه وسلطانه في بغداد والعراق ، والأمنُ والاستقرار وحرية الرأي وحرية التجارات والمعاملات والاجتماعات تعود إلى الناس ويعيشون بها وادعين مطمئنين ، والعلماء والناصحون يرجعون إلى مواطنيهم ويمارسون نشر العلم ويؤدون واجب النصيحة وجمع الكلمة ، هذا إلى ما جدّ من عناية الدولة البالغة بالعلم وأهله ، بفضل ما رزقت من كفايات بعض الوزراء الكبار كنظام الملك الوزير العظيم ، مؤسس أول مدرسة جامعة ببغداد إلى جانب أمثالها في البصرة والموصل وبلخ ونيسابور وهراة وأصفهان ومرو وآمل وطبرستان ؛ وذلك لتثبيت دعائم العلم والإسلام ، ومكافحة إلحاد الباطنيين والردّة الشعوبية العنيفة التي عصفت بوجه الدولة ، وبعث الحياة الصالحة وشد أزرها بقدر ما كان يسع جهد القوم وتفكيرهم .

وما إخال أبا طاهر ، وقد نشأ في مضطرب هذه البيأة البغدادية وعايَشَ أحوالها وما اختلط من رواسب قديمها بنواشئ جديدها ، إلا كان آخذاً من حالاتها بنصيب على قدر ما تهيأ له من اقتراب أو ابتعاد ، شأن كل ناشئ ذكي يُعْنَى بتثقيف نفسه ، ولا يجد بدًّا من ممارسة المجتمع ، ثم يجري في حياته على عِرْق مما توجهه إليه تنشئته وتربيته وعقيدته الموروثة وتجاربه المكتسبة ، أو على ما يقسره عليه مجتمعه فينزله على حكمه في قليل أو كثير مما يريده عليه ، أكان هواه معه أم كان عليه . ويبدو أن أبا طاهر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان ضعيف الصلة بحكام بغداد ، أو منقطعها ، لأمرٍ ما نجهله ، فلم يجد منهم رعاية ولا عناية . وآيةُ ذلك فيما يبدو من اتجاهه بشعره إلى أمراء « الحلّة » المزيديين ، ففي بعض مدائحه لبعضهم وهو سيف الدولة صدقة ابن منصور باني مدينة « الحلّة » بسواد العراق المتوفّى سنة ٥٠١ هـ (وقيل : ٥٠٤ هـ) ، وبه كانت معظم علاقته .. نجده يقول :

هواء « بغدادَ » أشهى لي ، و « دجلتُها » أمْرا لغُلّةَ قلبي منك يا « نيلُ » (١)
لو لم يكن فيك من « دُودانَ » بحرُ ندًى إنعامه في بني الآمال مبذولُ (٢)
تاجٌ ولكنْ على العلياء منعقِــــدٌ سيفٌ ولكنْ على الأعداء مسلولُ

فنعلم منه أنه كان مُحَـلَّأً عن موارد بغداد ، يرى الخير فيها سَكْباً ولكن يتجاوزه ، وأن اتجاهه بشعره إلى هؤلاء كان اضطراراً لا اختياراً ، ثم إنه مع هذا كان لا يجد عندهم طِلابه دائماً ، فربّما كانوا يمنعونه ، وربما كانوا يؤخرون صِلاتهم عنه ، فيتذمر ويشكو ، ويهمّ بقطيعتهم ، ويمهّد لذلك بلومهم ، ولكنّه لا يلبث أن يرتدّ عن عزمه مخافةَ أن يفقد عطفهم ، ولا يضمن أن يجد لنفسه بديلاً عنهم ببغداد وطنه .. بغدادَ التي لا أشهى له من هوائها ، ولا أمرأ لغُلّةَ قلبه من مائها ، ولكنها مع ذلك لا تُنيله منها مُناه .

(١) أمرا : امرأُ ، وقد سهل الهمزة للوزن . يقال : مَرَأَ الطعام ، مَرَاءة : ساغ ، فهو مَرِيءٌ . ومَرُؤَ : صار مَرِيئاً . الغلّة : العطش الشديد وحرارته . والنيل : نهر يخترق بليدة النِيل في سواد الكوفة قرب حلّة بني مزيد ، وفيه قال الشيخ صالح التميمي من شعراء العراق في القرن الثالث عشر الهجري :

« نيل » ولا « مصر » لكن في جوانبه نضارة لم تكن في « مصرَ » و « النيل »

(٢) دودان : هو دودان بن أسد بن خزيمة ، أبو قبيلة من أسد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

يدلّ على هذا قوله :

مالي إذا أنا "لُمْتُ" أسرة « مَزْيَد » والفقرُ من سَرَواتهم ، لم أعذر ؟

أم ما لقلبي كلّما كلفتـــه صبراً على فعلاتهم ، لم يصبر ؟

وإذا هممت بسط عذرهم على منعي ، وهم سحب الندى ، لم أقدر ؟

ونجد عنده ، بعدَ هذا ، ملامح من حياة اللهو والعبث والاستهتار بالخمر والنساء وارتياد الراقصات والعابثات ، ينفق في ذلك عمره والمال الذي يقع إليه ثواباً على مدائحه .

ولعل هذا النمط من معاشه قد رسمته له تربيته الأولى ، أو دفعه إليه تنكّر الحكام له . وهذا الحظ الأوكس الذي رافقه والحرمان الذي مُنيَ به ، قد أشعرا قلبه اليأس ، وكوّنا في نفسه عقدة النقمة من الناس والازدراء للمجتمع ، فانصرف إلى هذه الحياة العابثة لينسى همومه وأحزانه .

وللشاعر في هذه السيرة نظراء من أصحاب المواهب الذين جُهلت أقدارهم ، وخسّت حظوظهم من الإقبال ، وعاشوا وكل اعتمادهم على هذا الخيال الاتكالي الذي حسبوه معينهم في دنياهم ، فلما صدموا بالواقع ولم يعدّوا غيره للكفاح من عدّة ، هربوا إلى أنفسهم فانطووا عليها انطواءً يظهر من هذا الصدود عن المجتمع إلى العكوف على ملذات النفس والانغماس في الآثام إلى القمّة ، في غير تحرّج ولا تفكير في الأحوال الجادّة ، ولا سيما آثام الخمر والنساء العابثات ، وللشاعر منها نصيب موفور على ما ستأتي أمثلته في شعره .

ذلك بعض سمات علاقة أبي طاهر المادية بالمجتمع الذي عاش في مضطربه .

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما علاقاته الأدبية ، فقد أشار العماد الكاتب في « خريدة القصر » إلى بعضها ، وبقي أكثرها خافياً علينا . تلك هي علاقته بالشاعر المُفْلِق « عبد الرحيم ابن الأخوة الشيباني البغدادي [1] » من شيوخ العماد الكاتب هذا ، ويبدو أنها كانت علاقة ودية محكمة الأواصر شديدة الوثوق ، فقد حدث عنه بأصفهان أن أبا طاهر قد قرأ عليه معظم أشعاره ، وأنه استحسن من هذه الأشعار ما استحسن ، فرواه إعجاباً به واستظرافاً له ، ثم حمله عنه تلاميذه ، ودوّنه بعضهم في المصنفات . ومثل هذه العناية الظاهرة إنما تدل على تعاطف عظيم بين الشاعرين ، وتآلفٍ روحي أصيل بين مزاجيهما ، قلّما يكون شبيه بين الأنداد والنظراء في جملة أرباب الفنون والصناعات والحِرَف ، على ما هو مشاهَد في كل زمان ومكان ، لما ينشأ بينهم من تنافس في العادة يجرّ إلى التحاسد والتباغض وبَخْسِ بعضٍ أشياءَ بعض آخرَ ، مهما علا كعبه وتلألأت موهبته ، ولا سيما حينما يكون هذا مرزوقاً مجدوداً وذاك محروماً محدوداً ، وما نجا من هذا الداء الوبيل في الأمم ، داء التحاسد والتباغض ، إلاّ من نبلت نفسه وشرف خِيمه وكان عقله كبيراً .

ولئن انقطعت عنا أخبار أبي طاهر ، إلا هذه الصبابة منها ، فعزّ بسبب هذا تفصيل القول في حياته وفي أدبه وفنه ومزاجه ، إنّ في الصُّبابة التي انتهت إلينا من شعره ما يصف بعض لمحات من هذه الجوانب .

★ ★ ★

(١) بيت « ابن الأخوة » من البيوتات البغدادية المتميزة بالفضل والأدب إبّانَ القرن السادس الهجري ، ومن أعيانه عبد الرحيم هذا ، وكان شاعراً مفلقاً . توفي في شيراز ليلة الاثنين ثالث عشر شعبان سنة ٥٤٨ هـ . وقد ترجم له العماد الكاتب القرشي الأصفهاني في خريدة القصر ، وتحدثت عنه في مقدمتي لقسم شعراء العراق (ص ٢٢) ، وعن بيته في ١٨٦/٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والقدماء الذين اتصل بهم أدب أبي طاهر قد اعترفوا بعلوّ كعبه في الشعر ، فشهد العماد الكاتب ببلاغته وجودته وحسنه ورقّته ، واستحسن ابن الأخوة ما استحسن من شعره فرواه في مجالسه ونقله عنه تلاميذه وأثبتوه في كتبهم ، واهتزّ صلاح الدين الصفدي لجيّده ورآه الغاية في الملاحة ، وهؤلاء كلهم شعراء مجيدون ومن نقّدة الكلام لا غبار على أذواقهم .

والحاسة الفنية والذوق الحديث ، لا يتنكّران لهذه الشهادات ، إذ يجدان في هذا الشعر صوراً بارعة وأخيلة جميلة ومعاني جديدة أو أشبه بها .. في غلائل من النسج العبّاسي الحضري الأنيق ، مع القوة وإحكام الصنعة والانسجام وتوفير الرُّواء ، وإلى جانب هذا كله يحسّان فيه الطبع والتجربة يتخللان أغراضه المختلفة ويجريان به إلى النفس ، فتلذّه وتطرب له وتقبل عليه وتستشرف إلى المزيد منه . وهذا هو مبلغ الجمال المطلوب في الشعر والبلاغة والآثار الأدبية .

ولننظر إلى هذه الأبيات ، والظاهر أنها في سيف الدولة المزيدي :

فتىً من نداه الغمر يسترسل الحيا ومن وجهه الميمون يطّلع البدر
وما سلّ سيف العزم ، إلاّ تجعّدت سِباطُ القنا ، واحمرّت الأنصل الحمر
هو البحرُ : يحلو في فم الخلق طعمه ويصفو ، وماء البحر ذو كدر مرّ

فإننا نجد صورة لممدوحه جامعة لأحسن فضائله من سماحة الوجه ، وشدة العزم ، وكرم اليد ، مفرغةً في قالب جزل فخم ، بريء من الحشو والفضول . ولو أردت أن تقيم لفظة مقام لفظة من هذا الشعر ، أو تحذفها على أنها زائدة اقتضاها الوزن أو القافية ، لما استطعت ذلك . ولكن هذا الشعر في جملته من حيث الفكرة شائع المعنى مكرور ، إلاّ ما قد يبدو من هذه الموازنة في البيت الثالث عقدها الشاعر بين ممدوحه والبحر ، فشبهه به في اتساع جوده ، ولكنه فضله عليه بأنه حلو في الأفواه صافٍ ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وليس كذلك البحر ، فانه كدر مر . فلعل هذا المعنى هو الشيء الجديد فيه ، أضافه الشاعر إلى ما يعرف من هذا التشبيه الشائع عند القدماء .

ونقرأ له هذا الغزل ، فنرى فيه نظرته إلى الجمال الأنثوي ، ويتمثل عنده في صباحة الوجوه ، ورشاقة القدود ، ورجرجة الأرداف ، وهيَف الخصور ، وترف البطون ، وهو يصوغه صياغة أنيقة دقيقة ، ويؤديه أداءً مشبعاً إيقاعاً ورنيناً :

خذ بي على « قَطَن (١) » يمينا ... فعسى أُريك به القطينا
حتى إذا طلعت به الـ ... أقمارُ ، رنّحت الغصونا
يُخلفن ميعاد الوفا ... ء لنا ، ويمطُلْن الديونا
من كلّ ذات روادفٍ ... كالرمل رجرجةً ولينا
مُتَنطّقَن بالنّحَف الخُصُو ... رَ ، وصُنَّ بالترف البطونا
وأقمن من تلك العيو ... ن على خواطرنا عيونا

ويصف لنا فيه بعد ذلك علاقته بهذا الجمال ، وضنانته به ، وهواجسه وأحلامه في الحب ، وتعتّبه على الحبيب أن تسمّح للعواذل به ، وأنْ أساءَ ظنونه فيه بعد أن أحسنها هو في هواه حتى فتح بذلك باباً للوشاة ينفذون منه إلى حبها فيفسدونه :

يا بانةَ « العَلَمَيْن » من ... «قَرَن » (٢) ،كفى بكِ لي قرينا
أأمنتِ داعيةَ الصّبا ... بةِ لي وقولكِ لي يمينا
وعليَّ أيمانٌ مُغَلَّـ ... ظة ، أجلّك أن تَمينا
أن لا أعُدَّ سوى مَعِيـ ... نِ الدمع بعدك لي مُعينا

★

(١) جبل لبني عبْس ، كثير النخل والمياه ، وتمبين موضعه في معجم البلدان ١٢٦/٧ .
(٢) قرن : ميقات أهل نجد ، وقرن : جبل معروف كان به يوم من أيام العرب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يا من تسمّح للعوا ... ذل بي، وكنت به ضنينا
أحسنتُ ظنّي في هوا ... ك، فلِمْ أسأتَ بيَ الظنونا
قد كان ما قد كنتُ خِفْـ ... تُ من التجنّب أن يكونا
ورأيت منك قبيحَ ما ... ظنَّ الوشاة بنا يقينا
حتى كأنّك كنت لل ... هجران للواشي ضمينا
ولقد دعوتك قبلَ غد ... رك بي على قلبي أمينا
جردت من حدق القيا ... ن ظُبًا، ذعرت به القيونا
حدقاً جعلت فتور أعـْ ... ينها لأنفسنا فتونا
وجعلت من تلك الجفو ... ن على قواضبها جفونا

ويخلص إلى مدح سيف الدولة صدقة بن منصور فيقول:

أو لم تخف سيفاً تخو ... نَ حدّه الزمن الخؤونا؟
سيف تقدّ صدوره ... قمم الفوارس والمتونا

وهذا المقدار من القصيدة هو اختيار صاحبه الشاعر «عبد الرحيم بن الأخوة البغدادي الشيباني» كما أثره عنه العماد الكاتب. وقد اختار منها محب الدين بن النجّار البغدادي في تاريخه مقطعاً آخر غيره فيه طلاوة ورقة، وللناس فيما يختارون مذاهب وأذواق، وهما كما أثره عنه ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات:

يا من يلوم على البكا ... كلفاً يزيد به جنونا
الآن قد كان الذي ... قد كنت أحذر أن يكونا
وتفرّق الشمل الذي ... قد كنت أعهده مصونا
مني تعلّمت الحما ... مُ النوحَ، والإبل الحنينا
والسحب من عيني تعلّـ ... مُ كيف تحتلب الشؤونا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ورأيت منك قبيحَ ما ظنَّ الوُشاةُ بنا يقينا
طوَّلت أنفاسي ، فلِمْ قصرت عن وَسَنِي الجفونا ؟

ولدونة القدود ورشاقتها ، وخفة الأجسام وحركاتها ، من أخص مميزات هذا الجمال الأنثوي عند شاعرنا ، ومن أجمل ما يستصبيه من صفات الحسن .

أنظر اليه كيف يقول متغزلاً بفاتنة هيفاء ، وواصفاً قوامها الرشيق ، وقد خطرت أمامه فهاج تمايلُها بلابل أشواقه ، وتخيلها بانةً تمايل مع النسيم وتسجع فيها وُرق الحمام :

خطرت ، فكاد الوُرْق يسجع فوقها إنَّ الحمامَ لَمُغْرَمٌ بالبان
من معشر نشروا على هام الرُّبا للطارقين ذوائبَ النيران

وكيف فتنته خفة الجسم ورشاقة الحركات في هذه الرقاصة التي تكاد تحت ثيابها تنسبك ، والتي كأن الأرض تحتها كرة تحملها وهي فوقها فلك :

رقَّاصتي هذه ، لخفتها ، تكاد تحت الثياب تنسبكُ
خفيفة الجسم ، مالها كفل يثقلها شحمه ، ولا وَرِكُ
كأنما الأرضُ تحتها كرةٌ تحملها ، وهي فوقها فلكُ !

وهذا البيت الثالث ، من محاسن الوصف ، يدلُّك على عمق تصوُّرات الشاعر وتهدِّيه إلى المعاني الجديدة .

على أنه ربما استصبته الوليدة الصفراء من مولَّدات الإماء ، لمعانٍ فيها تجتذبه إليها . وهو ، إذْ يلام على صَبابته بها ، يحتجُّ لحبه بإيثاره منظر صفرة الراح على منظر بياض الماء :

أنت يا لائمي على شَغَفِ النفـ ... ـس بحب الوليدة الصفراء
لا تلمني على صَبابة قلب ملكته مولَّدات الإماء
أيُّما في العيون أحسن لوناً : صفرةُ الراح ، أم بياضُ الماء ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وشاعرنا ليس بدعاً في مثل هذا الحب والاحتجاج له ، فالتعلّق بالمولّدات الصفر ، وبالزنجيات أيضاً ، أمر معروف شائع ، ولا سيما في قديم الزمن . وهو ضرب من الشهوات . « والشهوات ـ كما قال الجاحظ ـ عادات ، وأكثرها تقليد . وكان أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات والأغوار ، واليمن أشهى النساء عندهم الحبشيات ، وبنات الحبشيات ، وأهل الشام أشهى النساء عندهم الروميّات وبنات الروميّات » . وقد تزوج الشاعر « أعشى سليم » من « دنانير بنت كعبوبة » وهي زنجية ، وكان « الفرزدق » من أعلم الناس بالنساء ، وكان قد جرب الأجناس كلها ، على حد تعبير « الجاحظ » ، فاستقرّ بأخَرَة على « أم مكية الزنجية » ، فأقام عليها ، وترك النساء ، للذي وجد عندها . وشاع حبّ الناس ، ولا سيما الكبار من خلفاء ووزراء ، للمولدات الصفر من مولّدات البصرة والمدينة واليمامة ، شيوعاً عجيباً في العصر العباسي الأول خاصةً ، وكان منهن أبرع القيان ، ومعظمهن موصوفات بالجمال والشكل والظَّرْف وطيب الصوت والأدب ، من أمثال : سلامة القَسّ ، وحَبَابة ، وشارية ، ومتيّم ، وذات الخال ، ودنانير ، وشاجي ، ودُقاق ، وقَلَم ، وبَصْبَص ، وسلامة الزرقاء ، وعَنان ، وبَذْل ، ومحبوبة ، وغيرهنّ . . أفلا يمكن أن تكون معشوقة شاعرنا الصفراء واحدة من هذا الضرب ؟

ومَنْ يدري ؟ فلعله أراد التفنن بشعره ، فذهب في هذا مذهب المغايرة ، ليظهر اقتداره على تحسين القبيح ، أو ليخالف المجمع عليه والمألوف استحسانه في الأذواق . وهو مذهب أدبي ، لأدباء العربية من كتاب وشعراء يد باسطة فيه ، ولا سيّما في الزمن القديم . وقد يكون « الجاحظ » أبا عذرته ، وفاتح باب القول فيه لكل من ولجه من الكتاب من بعده ، حين فضل السواد على البياض ، وافتنّ أعظم افتنان في الاحتجاج لذلك في « كتاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فخر السودان على البيضان » ، وهو يعلم حق العلم أن العرب إنما تمدح بالبياض وتهجو بالسواد ، وربما مدحوا بالسواد ، ولكن أصل ما يبنون عليه أمرهم ذمُّهُ ، كما يقول هو نفسه ،

أما الشعر ، فيقال إن السابق إلى هذا المذهب فيه أبو حفص الشطرنجي ، ثم جاء تَبَعاً له ، فجاراه فيه معاصره عليّ بن العباس بن الأحنف ، وقال في مثله : ابن الجهم ، وابن الرومي ، والرضي ، وابن مسلمة ، وابن رباح ، وابن رشيق ، وغيرهم ، ولكن حيازة قصب السبق في براعة الاحتجاج والافتتان فيه كانت لابن الروي في الشمراء ، كما كانت للجاحظ في الكتاب .

أو لعله ذهب مذهب « ابن المعتزّ » ، الذي أدركته الرحمة على القبح فعطف عليه وَهوِيَهُ كما هوي الحسن ، كما قال :

قلبيَ وثّابٌ إلى ذا وذا ليس يرى شيئـــاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبـــحَ فيهواه

وإن من الناس لمن يطبق على الجمال والقبح « نظرية النسبيّة » ، ويقول : ما كان للجمال ليكون جميلاً لولا القبح . وكان « فيكتور هوغو » شاعر فرنسة يرى أن الجمال هو القبح . وعلى هذا المحور أدار قصته المشهورة « نوتردام دوباري » . ومن قبله نظر « أبو الطيب المتنبي » شاعر العرب إلى جمال الأرواح قبل الجسوم ، وأرسل في ذلك هذا البيت :

وما الحسن في وجه الفتى شرف له إذا لم يكن في فعله والخلائق

ومهما يكن من دوافع شعر شاعرنا هذا في هذه المولّدة الصفراء ، فإننا نجده قد تعلّق بالجمال الأنثوي تعلقاً شديداً فأتبع النساء طرفه وقلبه ، وفتنه منهن رشاقة القوام ، وخفة الأجسام ، وبراعة الحركات ؛ وتعشق الأمة الصفراء من مولّدات الإماء ، كما تعشق العقيلة الحسناء من كرام الناس !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإلى جانب استهتاره بالنساء هذا ، نجده قد استهتر بالراح ، وشغف بشربها ، وشغل بوصفها فجوّده وبرع فيه ، وقال مثل قوله :

ومدامة ، كدم الذبيح ، سخا بها ... للشرب من لهواته الابريقُ
رقّت ، فراق بها السرورُ ، ولم تزل ... تُطفُ السرور ترقّ حين تروقُ
حتى إذا ضحك الزجاجُ ، لقربها ... منه ، بكى لفراقها الراووقُ

وقوله :

مرحباً بالتي بها قُتِل الهمّ ... مُ ، وعاشت مكارمُ الأخلاق
وهْيَ في رقّة الصّبابةِ والشو ... قِ ، وفي قسوة النوى والفراق
لستُ أدري : أمن خدود الغواني ... سلبوها ، أم أدمع العشاق ؟

وهذه الأبيات كانت تدور على ألسنة الناس ، استحساناً لها وإعجاباً بها ، وقد أثرها مترجموه ، ولكن العماد الكاتب حين أوردها في « خريدة القصر » عمن أنشده إياها ببغداد كأنه شك[1] أن تكون له ، ولست أرى موضعاً لشكه ، فهي ليست خيراً من الأبيات التي سبقتها ، وهي من رواية العماد الكاتب نفسه ، ولا هي بالتي يبان أسلوبها عامة شعره .

وأرى الشاعر في البيت الأول ينظر إلى قولٍ « أبي الطيب المتنبي » ، وكان « بدر بن عمّار » قد حمله مرة على شرب الخمر وكان طبعه يعافها ، فاستهجن أثرها في نفسه ، ثم عرض عليه الصحبة للشرب في غد فامتنع وقال مرتجلاً يصف ما وجده في نفسه ، من شربها في أمسه :

وجدت المدامـــة غلاّبةً ... تهيّج للقلب أشواقـــه
تسيء من المرء آدابه ... ولكن تحسّن أخلاقـــه

(١) قال (خريدة القصر ، قسم شعراء العراق : ٢/٢٢٦) : « وأنشدني ببغداد من نسبه إليه في الخمر » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأنفس ما للفتى لُبُّه وذو اللُّبِّ يكره إنفاقه
وقد متُّ أمس بها موتةً ولا يشتهي الموت من ذاقه

بل « المتنبي » ينظر في هذا إلى قول الآخر كما في « شرح التبيان » ، ولم يصرح باسمه :

رأيت أقلَّ الناس عقلاً إذا انتشى أقلَّهم عقلاً إذا كان صاحيا
يزيد حسا الكأس السفيهَ سفاهةً ويترك أخلاقَ الكريم كما هيا

وقال شرّاح شعر « المتنبي » في تفسير بيته الثاني ، الذي ينظر إليه أو إلى هذا بيتُ « أبي طاهر » : مراده منه أن الخمر تسيء التأديب بالحركات المفرطة وقول الفحش ، وتحسن الخلق أي تحمله على البذل والسماح .

وأما قول أبي طاهر : « أمن خدود الغواني سلبوها » ، فهو رواية « خريدة القصر » .. اتحدت فيها ثلاث نسخ منها مختلفة الخطوط . وورد في « الوافي بالوفيات » : « سفكوها » في موضع « سلبوها » ، وفي « فوات الوفيات » : « سبكوها » ، وفي « قاموس الأعلام » : « عصروها » . والسلب ها هنا أدخل في الذوق ، وألطف من العصر وإيذائه وإدمائه .

وأصل هذا المعنى ، أعني عصر الخمر من خدود الملاح ، لعلّ أول من سبق إليه وتورط في معصرته هو أبو تمام عفا الله عنه في بعض ما قال في صفة الخمر والشادن الذي يحثّها له :

وقهوة كوكبها يزهر يسطع منها المسك والعنبر
ورديّة . يحثّها شادن كأنها من خدّه تعصر !

وتابعه عليه من تابعه من الشعراء .. حتى زيّن « لحافظ إبراهيم » ، وقد جاء بعد أحد عشر قرناً من عصره ، أن يكرره أخذاً واستلاباً ، ولكن دون أن يفطن في احتراز « أبي تمام » باخراجه معناه على سبيل التخيل والتشبيه ، فيقول (أي حافظ إبراهيم) :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خمرة ، قيل : إنهم عصروها من خدود الملاح في يوم عرس

ولكن شتان بين قولة أبي تمام : « كأنها . . . » التي تلقي ثوب الرقة على بيته ، وتخفف من تصور قسوة هذا العصر للخد الوردي الناعم البريء ، و « قيل » حافظ ، وصوغه معناه مجرداً ومرسلاً على أن هذا « العصر » حقيقة كائنة : « قيل : إنهم عصروها » ، وإن اجتلب « يوم العرس » للقافية ، أو اجتلبته له القافية . وقسماً إن هذه اللفظة الرقيقة الرشيقة ؛ لم تزد هذه الصورة الكريهة إلا شناعة وقبحاً ، إذ الأعراس لا يناسبها إلا نعومة المناظر والمظاهر ، ولا يتصور أن يكون فيها إلا بشاشات الأفراح والمباهج وكل ما يحليها من أردية المرح والسرور ، وأين منها الهجوم على الملاح ، لتعصر من خدودها هذه الراح ؟ !

ومهما يكن من شيء ، فإن « سلبوها » في بيت « أبي طاهر » ، أدخل في الذوق « من عصروها » ، وأشبه بالبيت ومساقه في هذا النفي : « لست أدري » ، وفي هذا التجاهل والتردد في الاستفهام : « أمن خدود الغواني سلبوها أم أدمع العشاق ؟ » ، وإذ كانت « أدمع العشاق » وهي تنهمر من نفسها لا يجانسها هذا « العصر » ، فأحرى بالشاعر أن يتجه وعيه إلى لفظ « السلب » .

أما « أدمع العشاق » ، فقد كانت مما لهج به الشعراء العراقيون في العصور العباسية في نعت الخمر ، ويحضرني من ذلك بيت القائد أبي عبد الله محمد بن خليفة السِنْبِسيّ :

وكأنّ أفواه الزجاج وقد بدا منها المدام ، مدامعُ العشاق

ومن جميل شعر أبي طاهر ، هذا الوصف لليلة ظلماء صافية الأديم ، زهرت كواكبها ، ودارت فيها الكؤوس على الشرب وهي تتلألأ كأنها مُهَج النيران استلت من جسوم الثلوج :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ليلة . تحسب الكواكب فيها حَدَقَ الروم في وجوه الزنوج

في كؤوسٍ ، كأنها مُهَجُ النيـ ... رانِ تستلّ من جسوم الثلوج

قال الصَّفَدي : « أخذ البيت الأول من « الأبيوردي » ، وهو أحسن من هذا » ، وأحال عليه في ترجمته ، ولم أجده فيها .

وشاعرنا على انغماسه في هذه الحياة الماجنة ، لم يفته حظّه من التأمل في جملة سيرة المجتمع وسلوك الناس وطباع الأفراد ممن كتب له خلاطهم ، وصوغ ما اختمر في نفسه من تجاربه الحية الواعية في قالب الحكمة والمثل ، كالذي قال ، وقد راعته من كثرة الناس وقلة المصافين ، وضرب لذلك البحر مثلاً ، فهو يغرّك عُبابه ولكنك لا تجد فيه رِيًّا يبلّ غليلا :

أراك إذا عددتَ ذوي التصافي وجدتَهمُ أقلَّ من القليل

كماء البحر . تحسبه كثيراً وقلّتُهُ تَبين مع الغليل

وكالذي قال في صغار الأمور وطغيان الشبع والطبع والتطبع ، وضرب لذلك مثَلَ الفأر والسبع :

تَخفِ الأمرَ وإن ها نَ ، ولا يطغَ بك الشبع

ولا تصدِ بك الكلفَ ... ة ما يصقله الطبع ،

فقد يخشى من الفأ ر على من عضّه السبع

وكالذي قال ، وقد ابتلي بحاسد حاقد لئيم يجحد فضله مع اشتهاره وظهوره :

يا جاحدي فضلي وقد نطقت بفضائلي بَدَهاتُه عنه

هل أنت إلا البدر .. توضحه شمس الضحى ، وكسوفها منه ؟

وهذا معنى بديع ، وأسلوب في الذم والمدح عجيب ، وقد تلطف فيه غاية التلطف بذم صاحبه حين ضرب له مَثَل البدر ، ولنفسه مثلَ الشمس . ذلك أن البدر جِرم معتم ، لا فضل فيه بنفسه ، وإنما فضله مستمد من الشمس ، إذ تعكس نورها عليه فيضيء ، وحين تحول الأرض بينها ينخسف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كله أو بعضه ، فذاك مَثَلُها ، كما يكون كسوف الشمس من حيلولة جرم القمر بين الناظر وبين الشمس ، وذلك عند اجتماعها في العقدتين على دقيقة واحدة ، وهذا مثل جحود صاحبه فضائله المشهودة المشهورة ومحاولته سترها وإخفاءها بهذا الجحود .

وخاتمة شعر « أبي طاهر » الواصل إلينا ، هي ما ختم به حياته . . فجوّده وهو يجُود بأنفاسه الأخيرة ، ويودع الحياة والخلاّن يرثي نفسه ، وينشد عوّادَه هذا الرثاء ، ذاكراً آخر العهد منهم ومن الدنيا ، ومتمنياً أن يكون له معهم موعد يستجدّه ، ومستنجداً ـ في ترحله الذي يكرهه عليه هذا الموت ـ بصادق منهم يستردّه إلى دنياه :

خليليَّ ! هذا آخر العهد منكما ... ومنّي ، فهل من موعد نستجدّه ؟
لأنّ أخاكم حلّ في دار غربةٍ ... يطول بها عن هذه الدار عهده
فلا تعجبوا إذْ خفّ البين رحله ... وقد جدّ في إثر الأحبّة جدّه
على أن في الدارين تلك وهذه ... له صاحب يهوى وإلفٌ يوده
وقد أزمع المسكين منكم ترحّلاً ... فهل فيكُمُ من صادق يستردّه؟!

وهذا رثاء كل إنسان لنفسه لو يستطيعه حين يشعر بدنوّ أجله ومفارقته الحياة ، وتشبّث كل حيّ بأسباب البقاء لو قُدّر لحيٍّ بقاء . بل هو رثاء الإنسانية الحزينة جمعاء منذ وجدت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وصيحتها من الأعماق تستنجد فيها بالأسباب التي تستبقي لها الحياة وتنقذها من مخالب الفناء ، وهيهات !

وهذه القلة المروية من شعر « أبي طاهر » ، ورب قليل كثير ، ترينا شاعراً مفتناً ، ومتمكناً غاية التمكن في مذاهب الشعر ، وتنويع أغراضه ، وصياغته في مختلف المقاصد على نحو رائع رائق . . تجري فيه السلاسة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والرشاقة والإبداع مجرى الأرواح في الأبدان. أمدّه الطبع والثقافة وامتلاك ناصية اللغة والبيان ، فزخر شعره بالفكرة والأسلوب والفن والإيقاع .

وإذا ثبتت نسبة (قانون البلاغة) إليه ، وهو ما هو في إنشائه وأسلوبه الماتع ، إلى جانب هذا الفن الشعري الرفيع ، استوى لنا منه في جملة أدبه وعلمه وفنه أديب كبير ممتع البيان ، وعَلَم شامخ في دولتي الشعر والنثر يرف على الذروات من تاريخنا الأدبي الذهبي إلى جانب أنداد له من المجلّين في حلبة البلاغة والفكر والأدب ، أعزّوا الفصحى ، وسلسلوا مجدها في الأبناء والحَفَدة ، وسلموها إلى الأجيال الصاعدة متّقدة المشاعل ، باهرة الأنوار والأضواء .

بغداد : محمد بهجة الأثري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net